رحلة القصّة العربيّة من الماضي إلى الحاضر **

محسن يوسف

تعريف :

ما هي القصة ؟..

بعيداً عن النظريات والمقاييس الوافدةالى أقطار الوطن العربي مـن الغرب والشرق والتي تحاول التعريف بجنس القصة القصيرةوتحديد هويته مع التفريق بينه وبين غيره من الأجناس الأدبية كالرواية والحكاية ، تستطيع اللغة العربية بما تملكه من مفردات وغنى في التعبير أن تمنح هذا الجنس اسمه وهويته ،ففي معاجمها العديدة أكثر من مفردة ، يمكن أن تفي بالغرض والمطلوب .

وعلى سبيل المثال ، فان مفردتي (روى وقص) همـا المفردتان الأقرب الى الحاجـة والأنسب للغرض .. وعند أخذ هذين الفعلين للتعرف الى أسرتيهما ، فان الباحث سيجد بين أقرباء (روى) مجموعة كبيرة من المفردات منها (رواية ـ راوية ـ تروّى ـ رؤى ـ تروية : نظر وفكر طويلا ، وأخيراً كلمة ري) .. وتجمع كلمة قص حولها عشرات الأقرباء (كقصة ـ قصص ـ قصاص ـ تقصص ـ مقص ـ قصاصة . الخ)(١) .

ولدى تأمل أقرباء كل من الفعلين ، تأخذ كلمتا روى أو ري ، مسافة أكبر في الذهـن وتوحيان بالاشباع والمدى البعيد والزمـن الطويل والتوق الى الكل ، بينما تأخذ كلمات: قص . قصّاص . مقص . قصاصة ، حيزاً أقل في الادراك . انها في أبسط صورة تعني القليل الذي يتسع له الحيز الصغير .

واستناداً لما تمنحه اللغة العربية لفعلي(روى وقص) من معان ، تصبح امكانيـة تعريف القصة القصيرة وتفريقها عن غيرها ،أكثر يسراً ، وهي من هـذا المنظور ، ومـن

بديهيات معروفة عن هذا الجنس الأدبي لكتاب الوطن العربي، لابد من أن تتأطر وتتموضع ضمن شروط فنية ، تتضمن الزمن والشخصية والحدث وأخيراً الشكل والحجم ، وذلك حسب التالي :

- **وحدة الزمن** : الزمن النموذجي للقصة القصيرة هو اللحظة المعيشة ، أو الزمن المتخيل أو المستعاد في تلك اللحظة ٠٠

- **الشخصيات** : تعدد الشخصيات يضعف من حضور بعضها في القصة القصيرة ، ويمكن الاستغناء عن الشخصية الانسانية والاستعاضة عنها بفكرة أو رمز ٠٠

- **الأحداث** : نظراً لخضوع القصة القصيرة ، لشرطي الزمن المحدود والاقلال من الشخصيات ، وتبعاً لهذين الشرطين ، تتحدد الأحداث ، وخلاف ذلك ، فليس مهماً دائماً أن تكون القصة ذات حدث ٠٠

- **الشكل الفني** : يتداخل الشكل بالمضمون ويساهم في اثراء فكرته وتأطير حدثه وتركيز الاضاءة عليه ، على أن يحقق هذا التداخل ،وحدة البناء والانطباع ٠٠

- **الحجم** : من المفروض أن تكون القصة قصيرة ، وليس عيباً أن تكون طويلة ، طالما التزم القاص بالشروط السابقة مجتمعة ٠٠٠

☐ **جذور القصة العربية** : في كتب التراث أكثر من تعريف للقصة عند العرب(٢) فهي اما أن تكون خبراً طريفاً أو حكاية قصيرة تدور حول حادث بسيط، وهي حاجة من حاجات الشعوب في كل العصور والأزمنة كاحدى وسائل التسلية ، ومن شروطها أن تهدف الى غاية أدبية ، وأنواعها : النثرية والشعرية ، وقد اجتمع للعرب من أحوال حياتهم وأيامهم تراث قصصي تداولته ألسنة الرواة والقصاصين ،وفي كتاب الأغاني لأبي الفرج غير قليل من قصص الحب العربية ، كقصة المجنون والمرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف، وفي قصص عرب الجاهلية حكايات كثيرة عن الجن والعفاريت والحيوان ، وقدم النثر العربي القديم أوصافاً للمنازعات الناشئة بين القبائل في قوالب أقرب الى الفن القصصي منها الى رواية الأحداث التاريخية ٠ ومع اطلالة الاسلام ، يبدأ طور جديد وهام في مسيرة القصة العربية، لما حفل به القرآن الكريم من قصص الأقدمين والأنبياء والأمم ، كقصص يوسف وموسى ونوح عليهم السلام ، وتتابع القصة العربية نموها عبر العصور المتتالية وصولا الى القرن العشرين ، مروراً بالعصر الأموي الذي ازدهرت خلاله فنون الأدب عامة ، فوضعت قصص العشاق والمحبين ، وتضمنت قصائد الشعراء صوراً قصصية حية كما فعل عمر بن أبي ربيعة، واغتنى العصر العباسي بتراث العرب ، وقد دوّن ووثّق وراحت جنبات الامبراطورية الاسلامية المترامية ترفده وتغذيه ، وأصبح الكتاب من سمات العصر ، فقرأ العرب تراثهم في هذه الكتب ، بالاضافة الى تراث الشعوب الأخرى المجاورة ، كاليونان والفرس والهنود ، وقد اتصفت القصة العربية القديمة ،بمجموعة سمات منها :

١ ـ غنى النثر الفني العربي بالصور والخيال القصصي ، واحتواء قصائد الشعراء الكبار للقصص الشعري ٠

٢ ـ احتفاء القصة بمظاهر الحياة وتعبيرها عن هموم الناس ورغائبهم ٠

٣ ـ كانت القصة موجزة وقصيرة ، وكان السرد والتوشية اللغوية من المحاسن المرغوبة فيهــا ٠

٤ ـ اقتصار القصة على الشخصية الواحدة كمحور لأحداثها في عصر يتعشــق البطولة الفردية ٠

٥ ـ من أنواع القصة العربية القديمة نثراً وشعراً ، القصة التاريخية ، والقصة الشعبية، والقصة الاجتماعية ٠٠٠

٦ ـ أخذت القصة في ظل الاسلام ، وظيفة الدعوة الى الدين الجديد وترسيـخ تعاليمـه ومبادئه متوسلة الى ذلك بوسائل تجعلها قريبة الى مدارك الناس ٠٠

هذه هي بعض السمات التي اتصفت بها القصة / الجذور ، ولعل أهمها هو احتفاء هذه القصة بالانسان ، والتزامها ، بحمل وظيفة الدعوة الى مبادىء تسعى لتطوير المجتمـع الانساني ، ويظهر أن تلك القصــة التزمت أيضاً ببعض الشروط الفنيــة المعاصرة ، كالايجاز والقصر والتركيز على عملية التواصل بينهــا وبين المتلقي ، والاقلال مــن الشخصيات ٠٠٠

☐ مناهل النشوء والارتقاء :

من عمق التاريخ العربي ، يتفجر النبع الأول الذي نهلت منه القصة العربية المعاصرة، فتأثرت أكبر التأثر بقصص القرآن الكريم وأسلوب المقامات وأقاصيص ألف ليلة وليلة ، فوضعت القصص الدينية والتاريخية، وحملت القصة المكتوبة بأسلوب المقامات أعباء اجتماعية، مع الاهتمام بالمحسنات البديعيــة والقضايا اللغوية ، وقد استفاد الكتاب مــن خصوصيــة الشخصيات العربية التاريخيــة ، وكذلك الأحداث والوقائع المشهورة ، كشخصية عنترة ومجنون ليلى وعروة بن الورد وزنوبيا ، أو قصة أهل الكهف أو أيام العرب وهناك مــن حاول كتابة تاريخ العرب مستفيداً من أسلوب القص العربــي القديــم الذي كان يتلاعب بالأحداث التاريخية لصالح العمل الأدبي ،وفي هذه الفترة غلبت السمات التراثية ، في اللغة والأساليب فطغى السرد والوعظ والتوشيــة اللفظية والتفنن في الانشاء والترصيع والبلاغة، فتحول النثر في صورة ما ، الى لعبة تستهلك فيها اللغة ٠

لهذا كان لا بد من (قفزة) تقوم بهــا القصة العربية ، مع نهاية القرن التاسع عشر واندلاع الحرب الكونية الأولى ، وتمثلت هذه القفزة في عمليات متعددة ، أقدم عليها كتاب القصة بهدف ادخال القصة القصيرة بتقنيتها وشروطها الجديدة الى الوطن العربي ، ونفذت هذه العمليات على ثلاث مراحل :

١ ـ مرحلة قراءة الآداب الأجنبية والاطلاع على فنون القصة القصيرة منها ٠

ومن أهم الاداب الأجنبية التي جرى الاطلاع على قصتها وترجمتها الى اللغة العربية، الأدب الروسي والأدب الفرنسي والأدب الانكليزي ، وظهرت بصمات كتاب هذه الآداب في القصة العربية ، من أمثال موباسان وتشيخوف وغوغول وسومرست موم وغيرهم ٠٠

٢ ـ بداية عملية اقتباس وتقليد للقصة الأجنبية ٠

مع الرغبة الشديدة في كتابة قصة عربية تضارع القصة الأجنبية المترجمة ، أو المقروءة بلغتها ، راح الكتاب يلخصون هذه القصص ويغيرون في أحداثها وفي أسماء أبطالها ، وينسبونها اليهم ، وقد أسموا هذه الطريقة اقتباساً أو تقليداً ، وكان واضحاً أن قصصهم لا تنتمي الى واقع مجتمعاتهم ٠٠

٣ ـ مرحلة التأليف :

بدأت هذه المرحلة ، بعد الحرب العالمية الأولى ، وحاول الكتاب خلالها ، مجاراة القصة الأجنبية ، فراحوا يرصدون الواقع الاجتماعي العربي ، ويغرفون من التاريخ العربي تأليفاً على غرار التراث الغربي التاريخي ، وفي القصة الاجتماعية استطاع الكتاب أن يضعوا قصصاً امتازت بمحليتها وصورت البيئة العربية خير تصوير ، ومع هذه المرحلة ، بدأت القصة العربية القصيرة ، مسيرتها النشطة نحو المستقبل ٠٠٠٠٠

☐ مظاهر التشابه والتطابق :

تتميز القصة العربية ، عن غيرها من قصص الشعوب والأمم ، بمجموعة من الخصائص ، تدفع بها الى الصدارة ، كقصة انسانية ذات أبعاد اجتماعية متشابكة ، فمجتمعات الأمم الأخرى ، لم تذق طعم المعاناة التي تعرضت لها المجتمعات العربية ، ولم تعايش ظلماً مطبقاً أو قهراً مقيماً كالظلم والقهر اللذين أوجدتهما القوى الاستعمارية والبيئية المختلفة في الوطن العربي ، فقد عملت هذه القوى على سحق الانسان في هذه البقعة من الأرض ، ومزقت وطنه واستعبدته بما فرضت عليه من الشروط المجحفة ، وخيرته بين العبودية أو الحد الأقصى من التضحية والعذاب، فلجأ الى العصيان والتمرد والثورات ، وكان لا بد من سقوط الضحايا والشهداء ، وربما لم يعرف شعب حجم ما قدمه الشعب العربي من تضحيات ، من أقصى المغرب الى أقصى المشرق وفي فلسطين والجزائر وفي لبنان وسورية وليبيا ومصر وفي الجزيرة العربية ،بالاضافة الى ضحايا (سفر برلك) في اليمن، وفي أملاك الامبراطورية العثمانية ، ثم ٠٠ما هو عدد الثورات والانقلابات والحركات المتعددة التي دفع الانسان العربي ثمناً لها ،غالياً ، من دمائه وحياته ٠٠٠ وسعادته ؟ ٠٠ وقد تعاملت القصة ، في مختلف الأقطار العربية مع كل هذا ٠ عايشت الأحداث ورصدتها ٠ اهتمت بمشكلات الانسان وقضاياه ٠ بآماله وطموحاته ٠ بنكساته وأحزانه، وكانت القصة كتابه التاريخي الذي يحفل بنبضات قلبه وأفراح روحه ومآسيها ٠٠

هذا هو الوجه الأول الذي تشترك فيه القصة العربية المعاصرة ، وهو الوجه الأكثر بروزاً ، في انتاج القصاصين العرب ، فكلهم تقريباً ، تناولوا هذا الوجه ، على مختلف مواقعهم ، فكتبوا حول الظلم والاستبداد والملاحقة والتشرد والقتل ، كما كتبوا حول الصمود والتضحية والشجاعة والصبر ، وفي المقابل يأخذ الحب والعلاقات والجوع والمرض وسوى ذلك ، حيزاً كبيراً ، وكبيراً جداً من اهتمامات هؤلاء الكتاب ·

وتلتقي القصة العربية المعاصرة أيضاً في مختلف أصقاعها ، في مظاهر عديدة ، تندرج في التالي :

ـ تأثر معظم كتاب الأقطار العربية بالقصة الأجنبية ، وبالأخص القصة الأوربية ، أكثر مما استفادوا من التراث العربي ، ولامجال للمقارنة في ذلك ، فقد تأثر كتاب أقطار المغرب والمشرق العربيين بالقصص الروسي والانكليزي والفرنسي ، ويمكن أن نخص قصص بعض أقطار الجزيرة العربية وليس كلها ، بالاستفادة من التراث العربي ·

ـ تتقارب بدايات نشوء القصة القصيرة في جميع الأقطار · ربما سبق قطر قطراً آخر، لكن ذلك لا يعني سبقاً يستحق التأمل أو الدراسة، فالقصة بمواصفاتها المأخوذ بها في أيامنا، كلها وليدة أوائل القرن العشرين ، أما قصة أواخر القرن التاسع عشر ، فينبغي اخضاعها لمواصفات ومقاييس مغايرة ، تلغي التفاوت البسيط في زمن ولادة القصة بين قطر وآخر·

ـ جميع البدايات لم تترك آثاراً كبيرة ، وأكثر آثار البدايات ، ليست بمستوى الأعمال التي يكتب لها البقاء والخلود من الناحية الفنية ، اذ غلب عليها التقليد والنقل والتلخيص وأساليب الحكايات والانشاء ، وغير ذلك مما تجاوزته القصة في المراحل التالية وصولا الى مرحلة النضج ·

ـ تظل اللغة القومية ، رغم تعثر بعض الكتاب في استخدامها ، وسيلة التعبير الأولى ، مع استثناءات قليلة لادخال اللهجات المحلية ، والحفاظ على اللغة القومية حسنة يجب النظر اليها بتقدير، ومن الواجب نبذ الذين يحاولون الاساءة الى هذه اللغة ···

ـ في انتاج قصاصينا تتجاور جميع المدارس الفنية للقصة القصيرة ، بنسب متساوية تقريباً ، ولا تخلو قصة قطر من التأثر بقصة قطر آخر ، أو بصمات مجاورة أو بعيدة ، ومن هذه النقطة ، يبدأ البحث عن خلق قصة جديدة، ومدرسة جديدة ، وواجب كتاب القصة وضع القصة الجديدة ، وايجاد المدرسة العربيـــة القادرة على مقارعة المدارس العالمية المتقدمة·

☐ المصـــادر :

(* *) قسم من مقدمة مخطوط بعنوان (القصة في الوطن العربي) ·

١ ـ مختار الصحاح للامام الرازي : الصفحتان ٢٦٤ ـ ٢٦٥ لفعل روى والصفحتان ٥٣٧ ـ ٥٣٨ لفعل قص ···

٢ ـ يمكن مراجعة كتابنا (الظواهر القصصية عند العرب) منشورات المنشأة العامة للنشر/ليبيا البحث الأول (ملامح القصة الأولى التي كتبها العرب) ·